مقدمة المرزوقي
لشرح الحماسة أبي تمام

شرح هذه المقدمة وضبطها

وافاني الجزء الأول من المجلد السابع والعشرين الصادر في ربيع الثاني سنة ١٣٧١ لمجلة المجمع العلمي بدمشق فاذا من أحسن ما حواه مقدمة دبجها الإمام البليغ أبو علي المرزوقي [1] لشرحه على ديوان الحماسة اختيار أبي تمام . وهي مما نشر وصحح وحقق الأستاذ الدكتور شكري فيصل فلما رأيتها تحدثتْ نفسي بالشكر لشكري فيصل ، على نشرة مثلها ومثله كالمهند بيد صيقل . فانها خير رائد لمتتجع روض الفصاحة ، وأبصرُ مقدمة لجحفل البلاغة ، تفتح لمقتفيها ما استعصمتْ به خفايا النكت من الصياصي . وتمكينٌ بيد متقنها من جياد السبق أجفل النواصي ، إذ كانت قد أحاطت بمعاقد الأدب ، وتعاطت بمجنها أفنانه فتدلى يانعُ ثمره واقترب . وقد كنت قِدماً اهتممتُ بتدبرها عند إقرائي ديوانَ الحماسة بجامع الزيتونة بتونس منذ عام ١٣٢٦ فقدَرتُ قدرَها . وتبينتُ نفاستها في صناعة الأدب وخطَرَها ، ثم طواها الذهنُ ببسط مسائل أخرى ،

(١) هو احمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الاصبهاني توفي في ذي الحجة سنة ٤٢١ ترجمه ياقوت في إرشاد الأريب وقال إنه أخذ عن أبي علي الفارسي وذكر له كتباً منها شرح الحماسة قال وهو يتفاصح في تصانيفه كابن جني وكان معلم أولاد بني بويه باصبهان . قلتُ لم أقف على وجه نسبة المرزوقي واحسبُ أنها نسبة الى أحد أجداده . وهو معدود من أئمة الأدب وبلاغة العربية ولسعد الدين التفتزاني عناية بنقل كلامه في كتبه في بحث البلاغة مثل شرح المفتاح والمطول ويحليه بالامام المرزوقي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وثنى عِنان طِرْفه فأطلق له في ميادينَ فسيحةٍ وأجرى . فاذا بهذه النشرة تطالعنيها مطالعة الخريدة ، تبسم الى الصب فتردُّ محبتَه الرثة جديدة ، أو كالظبي ينفر عن مراعاة ربربه ثم ينيلها عِطفَه وجيدَه [1] ذلك هزَّ من عِطفي وحرَّك سواكني الى مراجعة عهدٍ مضى . فأصدِق عزماً قديماً وغرضاً ، هو العزم على أن أُعلق على هذه المقدمة القيمة ، وأُسرح اليها جواد الذهن وأُسوِّمه .

فانها جديرة بشرح ينشر مطاويها الوفيرة الأغراض ، ويُصَدِّق شَيْمَ من اتبع صوب بروقها المتكررة الإيماض ، إذ هي من قبيل اللمحة الدالة ، والخريدة الملتحفة غير المتجالة ، فهي خليقة بفَسْر كثير من معانيها إذ كانت مفرغة في دقة صياغة ، ولو أُخذتْ على غِرّها لم يدرك غورَها سوى الراسخين في البلاغة ، فعُنيتُ بتوضيح دقائقها ، واكتفيت في بعض المواضع بالحوالة على كتب الأدب .

ومن غريب الاتفاق اني حين حللت بالأستانة في أواخر العام (١٣٧٠) لحضور المؤتمر الثاني والعشرين للمستشرقين ورأيت خزائن كتبها الثرية كان مما لفت نظري نسخةٌ تامة من شرح المرزوقي في مكتبة كوبريلي باشا تحت عدد ١٣٠٨ وهي نسخة عتيقة نُسخت سنة ٦٧٦ ذات ٤٢٠ ورقة في القالب الربعي وقد حصلت منها على شريط فتغرافي . ولم يكن عندنا بخزائن تونس إلا نسختان من جزء أول ومن تجزئة خمسة حوتهما مكتبة الجامع الأعظم عدد ٤٥٣٤ وعدد ٤٥٣٥ . ورأيت الأستاذ الناشر قد بذل الجهد في تحقيق مختلف نسخها فاعتمدَ نسخاً أربعاً وأثبت ما بينها من اختلاف وقد رأيتُ أن أضمَّ الى ذلك ما خالفتْ فيه النسختان التونسيتان ونسخة الأستانة استكمالاً للضبط ، والى القارئ تعليقنا على هذه المقدمة بتفسير غريبها ، وتبيين مقاصدها وتقريبها .

(١) ذلك قبل أن يصل الينا الجزء الأول من شرح المرزوقي طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٧١ التي اعتمدت نسخة الأستانة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال الإمام المرزوقي : (وبعد فانك جاربتني ـ أطال الله بقاءك في أشمل سعادة وأكمل سلامة ـ لمّا وجدتني أقصرُ ما استفضلتُه من وقتي وأستخلصه من وكدي على عمل شرحٍ للاختيار المنسوب الى أبي تمام حبيبِ بن أوس الطائي المعروفِ بكتاب الحماسة — أمرَ الشعرِ وفنونه) .

الخطاب موجه الى الذي سأله تحقيق ما تضمنته هذه المقدمة ويظهر ان هذا المخاطب هو أيضاً قد سأله شرح اختيار أبي تمام أو انه حرضه على إتمامه لأن المؤلف قال في خاتمة الشرح [1] : « قد سهل الله وله الحمد تعالى جَده بلوغَ المنتظرُ من تتميم شرح هذا الاختيار والله بمنه وطَوْله ينفعك وإيانا به ويعينك على تفهمه الخ » .

وقوله جاربتني هكذا ثبت في جميع النسخ ومعناه حادثتني فيه قال في لسان العرب وجاراه الحديثَ وتجارَوْا فيه اه . فاستعيرت المجاراة تمثيلاً لحال المتحادثيْن بحال الفارسيْن يجربان ومن هذا القبيل قولهم تساجلا الشعر وتسايرا المجادلة وقد أعاد المؤلف هذا اللفظ في خاتمة الشرح إذ قال : فإني لم أدركه إلا بمجاراةٍ لشيوخ الصناعة فيه » .

وذكر الأستاذ الناشر في التعليق على هذه العبارة : ان الأستاذ محمد أحمد خلف غيَّر عبارة جاربتني فجعلها « جاذبتني » واعتلّ لذلك بأن المؤلف قال بعد صفحاتٍ « أمناً من المجاذبين » وهو تغيير يخالف النسخ كلها ولا داعي اليه إذ لا يتعين أن يكون المؤلف ملتزماً عبارة واحدة في كلامه كيف وهو من المتفننين ولأن لقوله « المجاذبين » فيما بعدُ معنى يناسب سياق الكلام هناك وسنبينه في موضعه وكلا الأمرين المجاراة والمجاذبة من شؤون محاورات أهل العلم قال الزمخشري في ديباجة الكشاف في وصفِ العالم المفسر « قد رَجعَ زماناً ورُجع اليه . ورَدّ ورُد عليه » .

---

(١) عن نسخة الأستانة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقول المؤلف (أقصر) بهمزة مفتوحة وبضم الصاد أي أرد وأحبس ويتعلق به قوله (على عمل شرح) و (الوكد) بفتح الواو وسكون الكاف هو الهم والقصد وقوله (أمر الشعر) كذلك ثبت في أكثر النسخ وفي نسخة ذكرها الناشر « في أمر الشعر » وهي الأولى وعلى ما في معظم بقية النسخ يكون أمرَ الشعر منصوباً على نزع الخافض .

(وأبو تمام) من شعراء الدولة العباسية في خلافة المعتصم امتاز بطريقة ابتكرها في الشعر وهي طريقة تدقيق المعاني وتكثيرها ولو أداه ذلك الى شيء من الخفاء في استفادتها من اللفظ . وأخذ عنه البحتري وتوفي بالموصل سنة ٢٢٨ وقيل سنة ٢٣١ وقيل سنة ٢٣٢ وديوانه مشهور . وجمع ديوانَ الحماسة وهو واضح الشهرة في الأدب العربي جمع فيه قطعاً للشعراء غير المشهورين . وله اختيار ترجمه بالقبائلي ، اختار فيه قطعاً من محاسن أشعار القبائل . وله الاختيار القبائلي الأكبر ، اختار منه من كل قصيدة ، وله اختيار الشعراء الفحول واختيار على طريقة ديوان الحماسة صدّره بباب الغزل .

قال المؤلف : (وما قال الشعراء في الجاهلية وما بعدها وفي أوائل أيام الدولتين وأواخرهما من الرفعة به) ترتيب هذه الفقرات في أكثر النسخ كما رأيتَ هنا ، وفي نسخة واحدةٍ من النسختين بتونس مغايرة لهذا إذ وقعتْ فقرة « من الرفعة به » عقب فقرة « وما نال الشعراء » وذلك أحسن مما في النسخ الأخرى ووقع قوله « وفي أوائل » في احدى نسختي تونس مجرداً عن واو العطف وهو أحسن إذ يكون قوله في أوائل الدولتين حالا من قوله وما بعدها أي بعد الجاهلية فيكون عصرُ النبوة وعصرُ الخلفاء الأربعة غير داخل . وأما النسخ التي فيها إثبات الواو فهي تقتضي أن يكون المراد بما بعد الجاهلية مدة زمن صدر الاسلام وليس للشعراء في صدر الاسلام رفعة بل كان الشعراء قد هجروا الشعر مثل لبيد ابن ربيعة العامري إلا أن يكون المقصود الشعراء الذين ذبوا عن رسول الله (ﷺ) مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله : « وأواخرها » وقع في احدى النسختين التونسيتين وأواخرهما بالتثنية والمراد أواخر مجموعهما أي أواخر الثانية منهما (إذْ كان الله قد أقامه للعرب مقام الكتب لغيرها من الأمم) .

أراد بالكتب كتب العلوم والتاريخ لأن العرب أمة أمية امتازت بالفطنة في السجية فكان شعرها ترجمان ذكائها وديوان آرائها (فهو مستودَع آدابها ومستحفَظ أنسابها) وقع في نسختي تونس ونسخة الأستانة عقب هذا جملة لم تثبت فيما نشر الدكتور شكري وهي (ونظام فخارها يوم النفار) وموقع هذه الفقرة حسن لما في إثباتها من تعادل الاقسام في الترسل (وديوان حجاجها عند الخصام ثم سألتني عن شرائط الاختيار فيه وعما يتميز به النظم عن النثر وما يحمد أو يذم من الغلو فيه أو القصد وعن قواعد الشعر التي يجب الكلام فيها وعليها) وفي احدى نسختي تونس « لها أو عليها » وهما أظهر (حتى تصير جوانبها محفوظة من الوَهن وأركانها محروسة من الوهي إذ كان لا يُحكم للشاعر أو عليه بالإساءة أو بالإحسان إلا بالفحص عنها وتأمُّل مأخذه منها ومدى شأوه فيها) المدى الغاية . الشأو أى منتهى ما سبق فيه شاعر غيره من الشعراء .

(وتمييز المصنوع مما يحوكه من المطبوع والأتي المستسهل من الأبي المستنكر) .

سيأتي للمؤلف ذكر المصنوع والمطبوع بعد ذكر الأبواب السبعة التي هي عمود الشعر ونشرحه هنالك ، الأتي ما يجلبه الساقي الى أرضه من السيل أو النهر بأن يحفر له حفيراً يجري فيه الماء قال النابغة يذكر جاريةً ضربت في الارض حفيراً بالمسحاة لصرف الماء عن بيت أهلها :

خلَّتْ سبيلَ أتِيٍّ كانَ يحبِسه ورفَّعَتْه الى السجفين فالنَّضَدِ

والمؤلف أراد بالأتي السهلَ ولذلك أتبعه بوصف المستسهل وصفاً كاشفاً وقد أتبعه فيما يأتي بوصف السمح في صفحة ٨٨ سطر ٦ من النشرة .

والأبِيُّ فعيل من أمثلة المخالفة وأصله الرجل المتعاصي غير المطواع وقد استعاره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المؤلف للكلام الذي يبدو عليه التكلف ولذلك أتبعه بوصف المستنكر والمستكرَه وأتبعه فيما يأتي بوصف الصعب (١) .

(وقضيتَ العجب كيف وقع الاجماع من النقاد على أنه لم يتفق في اختيار المقطوعات أنقى مما جمعه . ولا في اختيار المقصَّدات أوفى مما دوَّنه المفضَّلُ ونقدَه وقلتَ ان أبا تمام معروف المذهب فيما يقرضه . مألوف المسلك لما ينظمه . نازع في الابداع الى كل غاية . حامل في الاستعارات كل مشقة . متوصل الى الظفر بمطلوبه من الصنعة أين اعتسف وبما عثر . متغلغل الى توعير اللفظ وتغميض المعنى أنَّى تأتَّى له وقدر . وهو عادل فيما انتخبه في هذا المجموع عن سلوك معاطفِ ميدانه . ومرتض ما لم يكن فيما يصوغه في أمره وشأنه . فقد فليتُه فلم أجد فيه ما يوافق ذلك الأسلوب الا اليسير . ومعلوم أن طبع كل امرئ اذا ملك زمام الاختيار يجذبه الى ما يستلذه ويهواه . ويصرفه عما ينفر منه فلا يرضاه) .

قضيت العجب كلمة جرت مجرى المثل معناه تعجبتَ العجبَ القوي لأنه اذا تعجب عجباً قوياً فكأنه قضاه أي أدّاه وأتمه ومنه قضى وطراً ، قال الحريري في المقامات : « وقضيتُ العجبَ مما رأيت » . والمقطوعات القِطع من الشعر المختارة من قصائد أو التي نُظِمتْ من أول الأمر قطعاً قصيرة من الشعر وتسمى مقاطيع جمع مقطوع وتسمى قطعاً جمع قطعة وهي ما كان من الشعر أقل من ستة عشر بيتاً . ووصفُ ديوان الحماسة بذلك باعتبار غالبه وان كان قد يوجد فيه ما يزيد على ستة عشر بيتاً من قصائدَ كاملةٍ أو بعضها . والمقصدات جمع المقصَّدة وهي القصيدة وجمعها قصائد واسم الجمع قصيد وقد يطلق القصيد على القصيدة باعتبار الجنس . والقصيدة طائفة من الشعر زائدة على خمسة عشر بيتاً وهذه الأسماء مشتقة من القصد لأن قائلها قصدها واعتمدها فأما المقصدة فلأن

(١) انظر صفحة ٨٨ سطر ٧ من النشرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشاعر جعلها قصيدة وما دون القصيدة يسمى قطعة . والذي دوّنه المفضّل هو الديوان المعروف بالمفضليات يشتمل على مائة وأربع وعشرين قصيدة اختارها إجابةً لرغبة أبي جعفر المنصور لفائدة ابنه المهدي وجامعها هو المفضل بن محمد ابن يعلى الضبي الكوفي الراوية اللغوي توفي سنة ١٦٨ وعلى المفضليات شرح للمرزوقي ذكره ياقوت . وقوله « الى كل غاية » أي الى غايات كثيرة فان كلمة كل تستعمل في الكثرة للمبالغة دون قصد الشمول كقول النابغة :

بها كل ذيال وخنساء ترعوي الى كلّ رَجّافٍ من الرمل فارد

وفي القرآن : « جاءهم الموج من كل مكان » ووقع في نسخة الأستانة « أكمل » عوض كل وهي ظاهرة . وقوله فقد « فليته » وقع في احدى النسختين التونسيتين قلبته بقاف ثم لام مشددة وهي أحسن استعارةً من فليته لأن الفَلي كلمة مرذولة ينبو الأدباء من استعارتها كما سيأتي . والتاء مضمومة وهي تاء المتكلم حكايةً لقول المخاطب المحكي آنفاً بقوله : « وقلتَ ان أباتمام الخ » والأسلوب الطريق وهو في الاصطلاح الطريقة المخصوصة من الكلام البليغ كقولهم في الالتفات انه انتقال من أسلوب الى أسلوب أي من طريقة الخطاب الى طريقة الغيبة مثلاً . وقولهم الأسلوبُ الحكيم هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب .

(وزعمت بعد ذلك أجمع أنك مع طول مجالستك بجهابذة الشعر والعلماء بمعانيه والمبرزين في انتقاده لم تقف من جهتهم على حد يوديك الى المعرفة بجيده ومتوسطه ورديئه حتى تجرد الشهادة في شيء منه وتبت الحكم عليه أوله أمناً من المجاذبين والمدافعين) . المجاذبون أصحاب المجاذبة وهي مفاعلة من الجذب للشيء أي إدنائه باليد لأخذه فالمجاذبة أن يجذب كلا الشخصين شيئاً واحداً كلاهما يطلب أخذه لنفسه والمراد بها هنا تمثيل للمحاجة والاستدلال فكلٌّ يظهر ان الحق في جانبه . وأما المدافعة فهي مفاعلة أيضاً وهو إبعادك الشيء عن جهةٍ ما فالمدافعة مراد بها إبطال دليل الخصم عند المناظرة فمن المدافعة المنعُ المجرّد والمنعُ بالسّند في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قواعد الجدل وبقيةُ الاعتراضات على الأدلة وكلُّها راجعة الى المنع . واعلم ان المؤلف قد بين المجاذبة في آخر هذا الشرح[1] بقوله « لا أنسى مجاذباتي فيهما متى كان في القول إمكان وللتحصيل ارصاد ولسهم النضال تسديد وفي قوس الرماه منزع » . وهنا يظهر من حسن وقع لفظ المجاذبة ما لا يظهر في تغيير قوله في صدر الديباجة « فانك جاريتني » إذ لم يقل « جاذبتني » كما قدمناه هنالك .

(بل نعتقد ان كثيراً مما يستجيزه زيد يجوز أن لا يطابقه عليه عمرو) .

الذي في النسختين التونسيتين ونسخة الأستانة يستجيده بدال عوض الزاي وهي أحسن معنى ولفظاً .

ومعنى « لا يطابقه » لا يوافقه مأخوذ من الإطباق وهذه المادة توذن بالمساواة ومنه الطبَق وهو غطاء الإناء لأنه يجعل بمقداره ومنه أيضاً الانطباق .

(وانه قد يستحسن البيت ويثني عليه ثم يستهجن نظيره في الشبه لفظاً ومعنى حتى لا مخالفة فيعرض عنه إذ كان ذلك موقوفاً على استحلاء المستحلي واجتواء المجتوي) . « الاجتواء » بالجيم افتعال من الجوى وهو الداء الباطني والمراد بالاجتواء هنا الكراهة ونفور الطبع وأصله عدم ملاءمة الجو للساكن فيه وفي حديث النفَر من عُكْل وعُرَيْنَة « أنهم اجتووا المدينة » أي استوخموا جوها وهواءها إذ كانوا من أهل بادية وصيغة الافتعال هنا للمطاوعة .

(وانه كما يرزق الواحدُ في مجالس الكبار من الإصغاء اليه والإقبال عليه ما يُحرم صنوه وشبيهُه مع أنه لا فضيلة لذلك ولا نقيص لهذا إلا ما فاز به من الجد عند الاصطفاء والقَسْم) . أي وان ذلك يشبه ما يرزقه الشخص من الاصغاء اليه . وقوله ما يحرم صنوه كذا في جميع النسخ وهو من حذف عائد صلة الموصول إذ كان منصوباً بفعل وهو كثير فالتقدير ما يُحرمه . والجد بفتح الجيم الحظ والبخت ، والقَسم بفتح القاف وسكون السين مصدر بمعنى اسم المفعول

(١) عن نسخة الأستانة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهو ما يقسم للمعطَى بفتح الطاء من العطاء قال الأعشى : « ويقسم أمر الناس يومًا وليلةً » والقسم في كلام المؤلف معطوف على الاصطفاء . والمعنى أنك تتوهم أن سبب التفاضل بين البلغاء تابع لميل الأعيان الى بعض البلغاء دون بعض بسبب اجتباء المائل المالَ اليه اجتباءً ناشئًا عما للمالِ اليه من البخت الذي قدره الله له . والمقصود من كلام المؤلف إبطال أن يكون التفاضل خَلِيًّا عن أسباب حقيقية وأنه ليس لأسباب وهمية وإنما احتاج إلى إبطال هذا الوهم لأنه جاش في نفس المخاطب ولأنه شاع بين ضعفاء العقول وقاصري الصناعة إذا خانتهم المقدرة أن يعللوا خيبتهم بأنهم حُرموا البخت وأن تفوق من سواهم عليهم لأجل أن المتفوق مبخوت . ومن هذا القبيل حال المشركين حين عجزوا عن معارضة القرآن فانهم قالوا هو سحر .

(تونس) محمد الطاهر ابن عاشور

يتبع :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net